مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية
ISSN : 2353- 0529 EISSN 2600- 643X
المجلد 8 / العــدد: 04 (2020)، ص 99 - 114

الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بين دعوى حرية التعبير والتوجهات الهوياتية في النقاشات الفلسفية الفرنسية الراهنة.

The insulting caricatures of the Prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace, between the freedom of expression claim and identity trends in the current French philosophical.

الدكتور: عبد النور نابت.
جامعة البويرة.

تاريخ الاستلام: 2021/01/08 تاريخ القبول: 2021/01/01 تاريخ النشر:2021/02/26

الملخص باللغة العربية:

لقد كانت أزمة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد فرصة لطرح مشكلة حرية التعبير وحدودها في النقاشات الفلسفية الفرنسية الراهنة وانطلاقا من هذا الواقع تباينت الآراء بين مدافع عن حرية التعبير باعتبارها مكسبا تاريخيا نتيجة صراع الأنوار ضد الاكليروس الديني وفي الجهة المقابلة هناك مواقف تدعو الى ضرورة تقييد هذه الحرية لصون الكرامة الإنسانية. تثير هذه القضية العديد من المسائل المرتبطة بالوجود الإسلامي كالعلمانية، والإرهاب، والحجاب، والديمقراطية، والأنوار.

الكلمات المفتاحية: الكاريكاتور، الإسلام، اللائيكية ، حرية التعبير، التجديف.

Abstract :
The crisis of the cartoons insulting to the Prophet Muhammad was an opportunity to present the problem of freedom of expression and its limits in the current French philosophical discussions and based on this reality, opinions diverged between defenders of freedom of expression as a historical gain as a result of the struggle of lights against the religious clergy, and on the opposite side there are positions calling for the need to restrict this freedom To preserve human dignity. This issue raises many issues related to the Islamic existence, such as secularism, terrorism, veil, democracy and enlightenment.
Key words : caricature, freedom of expression, laïcité, islam, blasphemy.

مقدمة:

انتقل الجدل السياسي حول موضوع الرسوم الكاريكاتورية نحو ساحة النقاش الفلسفي باعتبار أن الفلسفة مصدر مهم لفهم الأحداث وتوضيح للمدركات الثقافية الفرنسية عن الإسلام، وبعيدا عن سؤال من يصنع الأحداث ويوجه الرأي العام الفرنسي النخب المثقفة أم وسائل الإعلام التي تحركها الأوليغارشية المالية نطرح التساؤل التالي، هل الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد تعبير عن حرية فكرية أم توجه هوياتي يرى في الإسلام تهديدا للهوية الفرنسية؟

تفتح الجرائد والمجلات الفرنسية صفحاتها للأقلام الفلسفية وهذا للمكانة التي تحملها الفلسفة في المجتمع الفرنسي، ولان الإعلام الفرنسي منقسم حسب التوجهات الإيديولوجية ينعكس الأمر على الكتابات الفكرية ولكل جريدة أو مجلة فلاسفتها المفضلون، فصحيفة مثل ليبراسيون اليسارية تفضل أسماء ذات توجه ماركسي كالآن باديو وايتيان باليبار وهذا على خلاف جريدة لوفيغارو اليمينية،

والتي تستنجد بلوك فيري و ريمي براغ و وروبير ريدكر في فهم مشكلات المسلمين في فرنسا.

في هذا السياق تعتمد هذه المقالة على تحليل ما كتب في الجرائد والمجلات الفرنسية حول هذا الموضوع بالعودة إلى المساهمات الفلسفية لفهم أوضح لرهانات المسألة الإسلامية في فرنسا .

اللائيكية الفرنسية وصدمة الإسلام

يقول الفيلسوف و المؤرخ الفرنسي مارسيل غوشيه (1946-): "تمثل اللائيكية كما نعلم وبامتياز استثناء فرنسيا، وهو مصطلح تمت ترجمته بشكل سيئ ويعبر عن مرحلة تاريخية فريدة من نوعها" (Gauchet,2020,137) وتوضيحا لهذه المقولة يقول فيليب راينو(1952-) في كتابه **اللائيكية تاريخ فرادة فرنسية** (la laïcité singularité française): "ترتكز اللائيكية حسب بويسون (واضع قاموس البيداغوجيا) على مسار علمنة تمر عبر نهاية الوصاية الدينية على الدولة ويقود هذا المسار إلى تأسيس مجتمع الحرية صاغت مبادئه الثورة الفرنسية، ولإعادة مقولة ايميل بولات(1920-2014) يمكن أن نقول أن فرنسا مرت من قرن مبدأه الكثلكة إلى مبدأ لائيكية بمعنى أننا انتقلنا من نظام يدعي أنه مؤسس على حقيقة نحو نظام الحرية الذي يقبل التعدد الديني و الروحي كمعطى لا يمكن تجاوزه"(Raynaud,2019,15).

بالعودة إلى التاريخ الفرنسي كانت القرون الثلاث التي تلت الثورة الفرنسية كافية لإبعاد الكاثوليكية من مجالات الحياة العامة اعني بذلك اختفاء تأثيرات الاكليروس المسيحي على الحكومة و الجيش و القضاء و التعليم، وكل هذه القطاعات أضحت تابعة للحكومة المدنية وهو تعبير عزيز عند الفيلسوف الانجليزي جون لوك، غير أنه وجب التنبيه أن هذا المنحى لم يتم بطريقة توافقية

منذ البداية ذلك أن السنوات الأولى كان إعدام القساوسة يعتبر الطريقة المثلى للثوار لإسكات الكنيسة وإرهاب أتباعها،غير أن التوافق بين الديني و السياسي بدأ عندما تم ترسيم حدود العلاقة بين المؤسسة الدينية و المؤسسة السياسية أو ما يعرف بقانون 1905، والذي فصل بين الدولة والكنيسة، وأعلن أن الجمهورية لن تعترف ولن تدعم ماليا أي دين وأنها ستضمن حرية الوعي في مجتمع حر في الاعتقاد أو عدم الاعتقاد.

غير أن ظهور الإسلام كموضوع إعلامي بعد أزمة الحجاب عام 1989 أرغم فلاسفة فرنسا على إعادة التفكير في المشكلة اللاهوتية السياسية، وشكل هذا الدين الوافد من فضاءات حضارية مختلفة عن السياق الحضاري الغربي تهديدا للجمهورية الفرنسية فلم يعد التعامل مقتصرا على مغتربين عمال تربطهم عقود عمل، ولكن مع مواطنين مستقرين داخل الأراضي الفرنسية يصعب إدماجهم أو قل يستحيل تفتيت هويتهم الدينية، أضف إلى ذلك اعتقاد النخب الفكرية أن حركات الإسلام السياسي لا تؤمن بقيم الجمهورية والخوف من أسلمه المجتمع الفرنسي الذي يشكل هاجس الأحزاب السياسية اليمينية.

يتحدث مارسيل غوشيه عن صدمة الإسلام التي أصابت النخب المثقفة و التي اعتقدت أنها فصلت في مسألة العلاقة بين السياسي و الديني ولكن لماذا الحديث عن صدمة؟ يعتقد هذا الفيلسوف أننا أمام دين غريب عنا ،جاء إلينا وبقي خارج الحداثة النقدية والتي تضبط أدنى موقف تجاه الاعتقادات الدينية و بالمقابل يجد أتباع الديانة الإسلامية صعوبة وحساسية مفرطة في تقبل محيط ثقافي كاره و مسيء للأديان ،ويمكن أن نضيف غرابة أخرى بالنظر إلى المرجعيات الاعتيادية ذلك أننا أمام دين لا يحتوي على اكليروس ولا ينتظم حول جهاز عقائدي هرمي، وهذا ما يخلق صعوبة في إيجاد محاورين عكس ما حدث مع

اليهود والكاثوليك و البروتستانت وهذا الاستشكال ظل يلاحق الحكومات الفرنسية المتعاقبة التي حاولت خلق إسلام فرنسي غير موجود حقيقة وكانت المجهودات المبذولة قليلة النتائج، غير أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن الإسلام يقدم نفسه على أنه خضوع لقانون إلهي موجه نحو تسيير المؤسسة الإنسانية و مجمل مظاهر الوجود. (Gauche,2020,140-141)

التيار الهوياتي اللائيكي وخط الدفاع عن اللائيكية

تمثل تحليلات مارسيل غوشيه مدخلا مهما لفهم السياق العام لمشكلة الرسوم الكاريكاتورية التي أثارت غضب المسلمين في العالم ولكن الحكومة الفرنسية تنطلق في مواقفها من خلفية ايديولولجية تتناسق مع المواقف الفكرية السائدة، وهذا ما حدث مع أزمة الرسوم ويشكل التيار الهوياتي اللائيكي المكون أساسا من فلاسفة أهمهم برنارد هنري ليفي(1948)، باسكالبروكنر(1948)، الزابيت بادينتر (1944)، ألان فينكيلكروت(1949)، وريجيس دوبري(1940) أحد أهم مكونات المشهد الفكري والإعلامي، ويشترك هؤلاء في دفاعهم الشرس عن العلمانية الفرنسية ورفضهم للطائفية الدينية وقد كانت لهم مواقف رافضة للحجاب الإسلامي و الدعم غير المشروط للرسوم الكاريكاتورية و يتصدر هؤلاء الفلاسفة المشهد الإعلامي وتطغى أرائهم بشكل لافت للانتباه لارتباط أفكارهم بمنطق التسويق الإعلامي.

يعتبر برنارد هنري ليفي(1948 -) أحد أهم الأصوات الإعلامية المؤثرة في الفضاء الثقافي الفرنسي العام، ويرى هذا المفكر أن الرئيس الفرنسي محق في دفاعه عن الرسوم الكاريكاتورية و الحق في نقد الأديان، وأنه أحسن التصرف في توضيح الموقف الفرنسي من الإسلام أمام المشاهدين العرب من خلال قناة الجزيرة القطرية، ويبدو للعيان أن موجة الغضب الإسلامية تعبير عن صراع حضاري بين

الغرب و الإسلام ،لكن ليفي يرفض مفهوم حرب الحضارات معتقدا أن هذه الحرب موجودة داخل الإسلام بين المؤمنين بفكر ابن رشد وابن سينا والكندي وبين ورثة السلفية من الأصوليين الذين حاولوا إطفاء أنوار بغداد.(40 Levy،2020،)

تتماهى رؤى باسكال بروكنر (1948-) مع صديقه ليفي مؤكدا أن هذه الحشود الحاقدة من دكا إلى غزة أو باماكو والتي تظاهرت و أحرقت الأعلام الفرنسية تتخذ من إعادة نشر الرسوم الكاريكاتورية ذريعة، لأن هذا السعار الذي أصاب هذه الجموع مرده الإغراء الذي يمارسه النموذج الجمهوري الفرنسي والذي وضع حدا لتدخل الكنيسة الكاثوليكية في الدولة، ورفع من شأن المرأة،كما أن اللائيكية الفرنسية تنظم التعايش السلمي بين الثقافات وتضمن حرية عدم الاعتقاد وتحمي الأديان وتحمينا من الهيمنة الدينية (Bruckner,2020,32)

بنفس النبرة والخط الافتتاحي يتحدث ألان فينكيلكروت (1949-) منبها إلى أن حادثة قتل المدرس لم تؤثر في تحليلات الخبراء وكتاب الافتتاحيات والجامعيين و المسئولين السياسيين، والذين لا يريدون رؤية التواصل الموجود بين الاسلاموية والعنف، وهكذا يصبح العيش المشترك حكاية، والأراضي الضائعة من الجمهورية أماكن لانتشار كراهية كل ما هو فرنسي(Finkielkraut,2020,49)، ثم إن الحل يكمن في إعادة النظر في شروط حق اللجوء السياسي والتجمعات العائلية و سياسة الهجرة عموما، وكذلك يجب التنصل من المؤسسات القانونية الأوروبية و التي تجرم التجديف والذي يسمح به القانون الفرنسي.(Finkielkraut, 2020,50)

على خطى السابقين من الفلاسفة المذكورين سابقا ترى الفيلسوفة اليزابيت بادينتر(1944-) أن الغالبية العظمى من الفرنسيين أصبحت لا تطيق هذه العمليات الإرهابية، ونتج عن ذلك تعالي الأصوات ضد الاسلاموية، ولكن هناك

دائما يسار متطرف موسّع لا يتوقف عن نقل السجال إلى موضوع استفزاز المسلمين، ومن ثمة رفض ربط كل ما يحدث بالإسلام والاسلاموية، وهذا ما يؤثر على توجهات عامة الناس ويجعل رفضهم المشروع المتطرف تهمة. Badinter, (2020,25)

يبدو أننا أمام خطاب أيديولوجي يحاول شرعنة الخطابات السياسية المدافعة عن النظام الجمهوري الفرنسي الذي يدعي الكونية ، وضمن هذا السياق يتساءل ريجيس دوبريه (1940) فيما إذا كانت اللائيكية قابلة للذوبان في الرسم الكاريكاتوري؟ بداية لا تملك فرنسا حلفاء، فجريدة مثل الواشنطن بوست ترى تراجعا في الحريات الدينية بفرنسا، وتتهم جريدة النيويورك تايمز الفرنسيين بالاسلاموفوبيا وتجريم المسلمين(Debray,2020,74)

وأمام هذه العزلة الدولية تقف فرنسا أمام أفراد مقتنعين أن موتهم بداية لدخول عالم الملذات، ومع تفجير أحزمتهم الناسفة يستطيعون الاستمتاع و يا للمفارقة بكل ما يرفضونه على الأرض من خمر و نساء و موسيقى. لا يرى دوبريه أي مجد لتصرفات بعض رؤساء المدن من عرض الرسوم المسيئة للنبي على واجهات المباني فهذا الأمر لا يعبر عن أية علامة تحضر ولا يمكن للمشاهدين استخلاص أية لذة جمالية لهذه الصور.

يعتبر هذا الموقف استثناءا بين الفلاسفة الفرنسيين و المعروفين بدفاعهم الشرس عن اللائيكية الفرنسية، وتفتح هذه المقاربة الباب أمام المواقف الفلسفية المنتقدة للمدافعين عن الرسوم الكاريكاتورية.

في نقد المدافعين عن الرسوم الكاريكاتورية

يمكن أن نلخص المواقف المدافعة عن الرسوم الكاريكاتورية من خلال موقف مارسيل غوشيه الذي يضع نفسه في صف المدافعين عن اللائيكية،

وحرية التعبير وما تقدمه من القدرة على نقد الأديان في صورها الأكثر حدة، وهنا يجب التذكير يضيف غوشيه أن نقد الأديان يتعلق بمعطى موضوعي وبمحتوى عقلي وعملي ليس له علاقة بنقد الأشخاص المنتمين لهذه الأديان، غير أن الدين الوحيد الذي يرفض حرية النقد هو الإسلام ، أضف إلى ذلك أن المسلمين يطالبون بتسامح خاص وهذا ما يجعلنا ننحني أمام التعصب الإسلامي.

(Guchet,2021,60) ،وتتكفل التربية المدنية بترجمة هذه القيم العلمانية على أرض الواقع، والتي فهم روحها المعلم صامويل باتي والذي لخصها في حقيقة أن ما هو مطلق بالنسبة لي لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة لشخص اخر، هذه الفكرة تقود نحو الإيمان بحقيقة التعلم الديموقراطية، والتي تظهر من خلال تعدد التوجهات الأساسية. ولكن الأهم بالنسبة لغوشيه هو تأسيس حياد القوة العمومية اتجاه الأديان، وهو ما يترجم في فضيلة التسامح المتبادل بين المواطنين (Gauchet, 2021,60) .

إن ربط مارسيل غوشيه لحرية التعبير بالمدرسة على أساس أنها فضاء لتعلم قيم الديمقراطية من تسامح وحرية النقد يتعارض حتما مع تقاليد المدرسة العلمانية الفرنسية والتي تمنع التعرض للأديان، وهنا يتحدث الفيلسوف ووزير التربية السابق لوك فيري(1951) عن ضرورة امتناع المعلمين عن إطلاق أحكام دينية داخل الصف الدراسي واحترام الاعتقادات الدينية وفاءا لتعليمات أب المدرسة الجمهورية جول فيري ، ذلك أن التكوين الديني من مهام الكنيسة و العائلات ،أما التكوين الأخلاقي فموكل للمدرسة (Ferry,2020,21).

يذكّر لوك فيري بالكم الهائل من الأغاني والأفلام التي تم منع إذاعتها ومراقبتها لأنها تعرضت للمؤسسات وللدين وهنا وجب التأكيد عن وجود حدود

لحرية التعبير و ضرورة تبني رسالة جول فيري والتزام المعلمين بمكافحة الأصولية بكل قواهم(Ferry,2020,21) .

وتأكيدا لهذا المعنى يرى ريجيس دوبري أن القول بأن حرية التعبير شاملة ولا يمكن أن نتفاوض حولها غير صائب، ذلك أن المفاوضات لم تتوقف منذ الميلاد القانوني لهذه الحرية، وهذا من خلال ضبط حدود هذا الحق الإنساني، وتثبيتا لهذه الفكرة يعترف الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بحرية تواصل الأفكار والآراء، والتي تعتبر أهم الحقوق الإنسانية وأن كل مواطن يستطيع أن يتحدث ويكتب و ينشر بشكل حر إلا في الحالات التي يتم فيها انتهاك استخدام هذه الحرية ويقوم القانون حينئذ بضبطها. (Debray, 2020,4)

وبالنظر إلى قانون 29 جويلية 1881 يلحظ المرء تعديلات وتصحيحات للقوانين المنظمة لحرية التعبير والقائمة طويلة، وهذا في ظل وضعيات الحرب وحالة الطوارئ وحالات المنع. ويمكن ذكر حالات نشر مؤلفات تشكل خطرا على الشباب بسبب طابعها الجنسي (البورنوغرافي)... أو الإشادة بأعمال إرهابية وإذاعة أخبار متعلقة بهوية ضحايا الاعتداءات الجنسية والجسدية، وإشهار مؤلفات أو أفلام تحمل تهديدا للنظام العام ومع كل هذه القيود والحدود يتم احترامها من طرف أناس أكثر تحررا والمثال الأقرب إلى ذهن دوبريه ما قامت به أسرة تحرير جريدة شارلي ايبدو عندما طردت الرسام سيني بتهمة معاداة السامية.(Debray, 2020,4-5)

يظهر أن كل رسم أو قول يمس اليهود يعرض صاحبه للطرد أو السجن أو المحاكمة والمثال المذكور عينة بسيطة من حالات تتكرر دائما وهو ما يمس بمصداقية دعاة حرية التعبير، ولكن ما يميز الحالة الفرنسية هو ذلك التاريخ الطويل من الصراع المرير ضد الإكليروس الديني المسيحي .

نقرأ مثلا في مجلة ايستوريا (historia) ما يلي: "لم يكن الرسم الساخر المضاد للإكليروس اكتشاف الجمهورية الفرنسية الثالثة، ففي الأزمنة الأولى للمسيحية، ومع بداية القرن الثالث الميلادي رسم ترتيليون(مفكر لاتيني حديث الإيمان بالمسيحية) إله المسيحيين بشكل غريب، وخلال حروب الدين رسم البروتستانت الكهنة في صورة خنازير، ومع مجيء الثورة الفرنسية انتعشت الصور الداعرة التي عرضت القساوسة والنبلاء والعائلة المالكة بشكل فاضح. لقد كانت الكنيسة خلال القرن التاسع عشر المستهدف الرئيسي من طرف الرسامين الكاريكاتوريين، الذين لعبوا لعبة القط والفأر في ظل تقلبات الحكومات، ذلك أن الحكومة اليمينية حظرت الرسوم التي مست الكنيسة... غير أن إسقاط القوانين التي وضعت حدودا لحرية النشر أعاد الحيوية والنشاط للرسم الساخر المضاد لمؤسسة الكنيسة." (Giol,2021,8)

تقدم لنا هذه المعطيات التاريخية دليلا واضحا على توتر العلاقة بين الحداثة الغربية والدين، فلم تعد هناك حدود بين المقدس و المدنس بفعل ضعف الاعتقادات الدينية وتناقص مظاهر التدين، وهذا ما يميز المجتمع الفرنسي. يقول الفيلسوف الفرنسي جاكوب روقوزنسكي(1953): "نحن مقتنعون بأن الدين ضرب من الوهم يصيب طفولة الإنسانية بالمرض، وهو محكوم بالتلاشي أجلا أم عاجلا. ثم إن استمرار الدين لن يكون إلا باعتباره من بقايا الماضي وفلكلورا عفا عنه الزمن.... لقد نسينا أن الأجهزة العقائدية ومنذ قرون أعطت للبشر أسبابا للحياة والحب والنضال والأمل في الإبداع وأن الإيمان الذي أسس الكاتدرائيات ما زال ينبض في معزوفات باخ، ولوحات الرسام رفائيل،كما أن الثورات التي قامت ضد الظلم أخذت شكلا دينيا وحملها الاعتقاد باله قادر على إسقاط الأقوياء من عروشهم."(Rogozinski,2020,31)

يذهب روقوزنسكي في تحليله للوضعية الروحية للغرب وفرنسا تحديدا إلى الاعتقاد بتراجع الاعتقادات الدينية في مقابل تطور علمي و حريات لا حدود لها ،و هذا ما وسع من مساحة الضياع و الانعزال وهو ما ضاعف أزمات مجتمعاتنا وغذى فقدان البصيرة و العدمية.

تظهر هذه العدمية الغربية من خلال النظر إلى كل ممنوع على أنه قيد لا يطاق، أو عندما يطالب بحق الضحك على كل شيء دون مراعاة مشاعر الآخرين. لقد تحولنا يقول: هذا الفيلسوف إلى عدميين لأنه لم يعد هناك مقدس، فلقد تم تدنيس كل شيء، ببساطة لأننا لا نرى إلا عالما واحدا، عالم الإنتاج و التجارة والتسلية (Rogozinski,2020,31)

يحاول روقوزنسكي إعطاء مسوغ للرسوم الساخرة من نبي الإسلام، وهذا بالنظر لطبيعة المجتمع الغربي والفرنسي خاصة والذي طغى على أفراده الجانب المادي، والنزعة الفردانية وسط عالم معولم انتفت فيه الحدود السياسية بفعل تعقد شبكات التواصل الاجتماعي، والاقتصاد الرأسمالي الخاضع للشركات المتعددة الجنسيات.

لا يرى المدافعون عن الرسوم الكاريكاتورية عواقب العولمة كظاهرة تميز حياة الإنسان، ونعني بذلك سرعة انتشار هذه الصور المسيئة للدين الإسلامي، وتلقي أناس غير مثقفين لهذه الصور والأثر القوي، الذي تتركه على سلوكيات الناس. يقول أوليفييه مونقان و جون لويس شليغل : "إنه لأمر مثالي أن نقول إننا لا نستهدف إلا الإسلاميين الراديكاليين، مجانين الله وليس الإسلام، قد تكون النية حسنة ولكن الفعل خطير ،ذلك أن الإسلام يضم بعض الآلاف من الإسلاميين الذين قرروا قتلنا باسم الله ،وقادرين على التلاعب في صراعهم بعدد كبير من الأميين وأشباه المثقفين الذين لم يسمعوا أصلا بحرية التعبير. ومما يساعد على

التحكم في هذه الفئات أننا نعيش زمن الانترنت، وفيه يتم إذاعة الرسائل الالكترونية، وخطابات الحقد غير محدودة والآنية، والتي يمكن أن تصل إلى عدد كبير من الجماهير".(Mongin,Shlegel, 2020, 25)

خلاصة القول، يركز منتقدو المدافعين عن الرسوم الساخرة من الأديان وتحديدا الإسلام، على جهل هؤلاء الفلاسفة لخصوصية الإسلام، ولمسار فكر الأنوار الذي أعمى بصائر الناس، وكذا عدم تقدير الكثير من المفكرين من مختلف التوجهات السياسية لعواقب العولمة ،والسؤال المطروح هنا هل من رؤية فلسفية تحلل لنا تصلب المواقف المتخاصمة بين فرنسا إنسانية، وأخرى هوياتية؟

ادغار موران والحاجة إلى الفكر الإنساني

عبّر ادغار موران (1921-) عن هذه الرؤية الفلسفية، ويمثل هذا المفكر الفرنسي أحد أهم الأصوات الفلسفية المؤمنة بالحوار مع الأخر والرافضة لمنطق الإقصاء، له أكثر من سبعين كتاب موزعة بين علم الاجتماع والفلسفة و الانتربولوجيا، عرف بقربه من الأوساط السياسية اليسارية ولقد بدأ حياته الفكرية شيوعيا، ثم ما لبث أن انفصل عن الحزب الشيوعي الفرنسي بعد أن انتقد ممارسات الاتحاد السوفيتي القمعية وكان طرده من مؤسسات الحزب الشيوعي مناسبة للتخلص من الدوغمائية والولوج إلى مركز البحث الفرنسي .

ينظر هذا الفيلسوف إلى الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لرسول الله على أنها ليست اكتشافا فرنسيا، إنها دانمركية وتؤسس هذه الرسوم رابطا سريا بين النبي المؤسس للإسلام المبجل من لدن المسلمين الأتقياء والجهاديين الإرهابيين، ولم يتم إعادة إنتاج هذه الرسوم في بلدان ليبرالية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا، ولا في بلدان مثل ايطاليا واسبانيا والتي فيها تحظر القوانين شتم الدين.(Morin,2020,28)

لا يؤمن فيلسوف التعقيد بضرورة ترسيم الدولة الفرنسية للتجديف، أو الدفاع عن الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد لأنها تصدم المسلمين وتثير حوادث مميتة، ومظاهرات معادية لفرنسا في العالم الإسلامي، ثم إن الأهم كما يقول موران، هو أن نكون منتبهين للتأثيرات المنحرفة لأفعال منطلقها النوايا المخلصة، ففي بعض الأحيان هناك تناقض بين الحرية ومسؤولية الكلمة والكتابة ،وأن الاختيار بينهما يتضمن مجازفة وهكذا فان تحمل مسؤولية نشر الرسوم الدانماركية على أساس أنها تعبير عن حقيقة الحرية الفرنسية عمل غير مسئول (Morin,2020,28-29).

من هذه الخلفية تصبح هذه القضية مسألة أخلاقية، وينظر موران إلى هذه القضية من منطلق أن الايتيقا لا يمكن أن تحدها النوايا الحسنة وأنها يجب أن تدرك معنى عواقب الأفعال والتي قد تكون غالبا معاكسة للنوايا وخاصة وأن كل قرار يتخذ في سياق غير يقيني أو تصارعي يتضمن نتائج عكسية، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نحكم على الرسوم الكاريكاتورية حسب النوايا التحررية لمؤلفيها ومذيعيها ،ولكن وفق إمكانيات النتائج السلبية والكارثية، وهكذا فان حرية التعبير لا يمكن أن تقصي في حساباتها التنبؤ بالعواقب العنيفة والإجرامية وعدم الفهم، التي يمكن أن تثيرها هذه الحرية، لكن يتساءل موران هل يمكن لهذه الرسوم الكاريكاتورية أن تساعد المؤمنين الأتقياء على أن يشكوا في معتقداتهم ؟ على الإطلاق يجيب فيلسوفنا،كما أن هذه الرسوم لن تستطيع أن تساهم في إضعاف الحركة الجهادية. (Morin,2020,29)

عودة إلى السؤال الأول الافتتاحي، يعتقد موران أن حالات العمليات الإرهابية أبانت عن تطور الفكر الثنائي المانوي والأحادي والاختزالي وأن كل مقاومة لظاهرة الاسلاموفوبيا المتنامية تصبح علامة بائسة للانتماء إلى الاسلاموية اليسارية ،

وهنا يجب التوضيح أنه لا يتعلق الأمر بالإسلام، ولا باليسار، والقضية أن هناك أناسا متواطئين مع القتلة مثلما حدث في سنوات (1914 ،1933، 1940)، ومع كل هذيان جماعي يظهر فلاسفة الهيستيريا في الصف الأول، والأخطر من ذلك ظهور انقسامات متكررة في ظل هذه الظروف، ففي بداية القرن العشرين انتصرت فرنسا الجمهورية اللائيكية على فرنسا الملكية الكاثوليكية المحافظة، وفي الحالة المأساوية سنة (1940) فرضت فرنسا رجعية بسبب الهزيمة العسكرية، غير أن الحجر الصحي جمد الصراع الاجتماعي إلا أن نهاية الحجر سيظهر مواجهة بين فرنسا هوياتية وأخرى إنسانية. (Morin,2020,29)

يقترح هذا السوسيولوجي التربوي برامج بيداغوجية لمواجهة الإرهاب الإسلاموي كما يسميه، ترتكز على إشاعة الروح التساؤلية، وهي روح حاضرة لدى الأطفال، وضرورة تشجيع الروح الإشكالية، ووضع البداهات موضع الشك، ولنستذكر كما يقول موران، أنه في عصر النهضة تم أشكلة العالم ،كما أن الفلسفة أشكلت كل حكم تسلطي، ومنه نشأت الروح الديموقراطية التي هي جوهر اللائيكية.

إن الروح النقدية تفترض إذن حيوية الروح التساؤلية والإشكالية والمعالجة الذاتية، والتي يجب على التعليم أن يثيرها، وفي حقيقة الأمر ينطلق موران في فلسفته التربوية من مبدأ روسوي "أن نعلم كيف نعيش" طبعا ليست هناك وصفات للحياة، لكننا يمكن أن نعلّم كيف نربط المعارف بالحياة، ويمكن أن نعلّم كيف نطوّر إلى أقصى حدّ ضربا من الاستقلال الذّاتي، أو كما قد يقول ديكارت ضربا من المنهج الضامن لحسن عمل التفكير، يمكننا من مواجهة شخصيّة لمشاكل الحياة،كما يمكننا من أن نعلّم الجميع وكل واحد منا ما يساعد على تجنب الفخاخ الدائمة للحياة(موران ،2016، 27).

يستلهم موران من الإرث الانواري فلسفته التربوية متناسيا أن هذا التنوير لم يستطع أن يتخلص من التمركز ألاثني رغم الادعاء بأنه فكر إنساني، وهو الفكر الذي يدعي التيار الهوياتي اللائيكي الانتماء إليه، صحيح ينتقد هذا الفيلسوف التسعيني الائيكية المتطرفة التي تسعى لفرض نمط حياة على الأقليات الدينية، ولكنه في الحقيقة وبحكم أنه يهودي ماراني يعكس فكره صورة اندماج الطائفة اليهودية في المجتمع الفرنسي.

الخاتمة

يمثل موضوع الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد عرضا بسيطا من أزمة الوجود الإسلامي بفرنسا، ومن المواضيع التي تستغلها الأحزاب السياسية، وبغض النظر عن الطابع الإيديولوجي لهذا النقاش الفلسفي، إلا أن المشكلة الإسلامية ما زالت تثير اهتمامات النخب الفكرية في الغرب، ويتم رسم سيناريوهات مرعبة في المستقبل القريب، لأن منظومة القيم الإسلامية تتعارض مع منظومة القيم الغربية، أضف إلى ذلك هشاشة الصف الإسلامي وتشرذمه أمام وحدة التيارات الغربية المناهضة للمسلمين، ويبقى رهان المسلمين مرتبطا بالتعايش مع المجتمع الغربي والمساهمة في البناء الحضاري.

الهوامش:

1- Gauchet, marcel, (2020) laïcité ; le retour et la controverse, le débat, n°210, pages 137-146.
2-Raynaud, Philippe, (2019) la laïcité, histoire d'une singularité française, (Gallimard),(France) .
3-Levy, Bernard henry, (2020, 18-11) En attendant l'islam des lumières, le journal de dimanche, pages 40-41.
4-Bruckner, pascal, (2020, 10,10) Dieu lui-même est sans doute lasse, le monde, page31.
5- Finkielkraut, Alain, (2020,11) Samuel Patty le dévoilement, et le déni, magazine causeur, pages49-51
6-Badinter (Elisabeth), (2020, 22-10) cela ne peut plus se régler dans le pacifisme, l'express, n°3616, page25.
7-Debray, Régis, (2020, 3-12) la laïcité est –elle soluble dans la caricature ? L'obs. , n°2927, page74.
8- Gauchet, Marcel (2021,1) la liberté de l'expression a-t-elle des limites ? magazine philosophie, n°145, pages59-63 .
9-Ferry, luc, (2020,5-11) Quelle liberté d'expression à l'école ? Le figaro, page 21.
10-Debray, régis, (2020) France laïque, sur Quelques Questions d'actualités, (Gallimard), (France).
11-Giol, Charles, (2021,1) la caricature anticléricale avant 1881, historia, n889, page8.
12-Rogozinski, Jacob, (2020, 10-11), nous sommes victimes de ce qu'il faut bien appeler l'aveuglement des lumières, le monde, page 31.
13-Mangin olivier, Schlegel Jean-Louis, (2020, 11,4) les défenseurs de la caricature a tous vents sont aveugles aux conséquences de la mondialisation, le monde, page 25.
14-Morin, Edgar (2020,11-21) Que serait un esprit critique incapable d'autocritique ? Le monde, pages 28-28.
15- موران ،ادغار،(2016) تعليم الحياة بيان لتغيير التربية، منشورات ضفاف (بيروت، لبنان).